﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾ [الأعراف: 191 - 193]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بيانُ أدلَّةِ عَجْزِ الأصنام والأنداد بعد ذِكْرِ علوِّ الله وقوَّته

لمَّا ذَكَر الله تعالى عُلوَّهُ عن الشُّركاء، شرعَ يذكر من أوصافهِ عبارة ما يَدُلُّ على ذلك، ويُقيم الأدلَّةَ على عدم صلاحيَّة صَلاحِيَةِ ما أشركوا به للشّركة بِعَجْزِها، بأنَّها من جُملة خلقه ولا تَصَرُّف لها تستحقُّ به وجهًا من التَّعظيم[1]، فأثبتَ سبحانه أنَّه لا قُدرةَ لهذه الأصنامِ على أمْرٍ مِن الأمورِ، وبيَّنَ كذلك أنَّه لا عِلمَ لها بشيءٍ مِن الأشياءِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَوَآءٌ﴾: السِّينُ والواوُ والياءُ تَدُلُّ تصاريفُها على استقامة واعتدالٍ بين شيئين[3]، وَمِنْهُ قولُهم: مكانٌ، وسَوَاءٌ، أي: وسطٌ[4]، ومنه قولُه تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: 6]، أي: يَسْتوي الأمرانِ المذكورانِ.

2) ﴿صَٰمِتُونَ﴾: من الصَّمْت، بمعنى السُّكوت "كأنَّه مُصْمتٌ مَتَماسِك الأثناء لا ينفذ ما فيه" أي: ساكتون، يُقال: صَمَتَ يَصْمُتُ صَمْتًا: إذا لم يتكلَّم[5]، وَأَخذه الصُّمات؛ إذا سكت فَلم يتَكَلَّم[6]،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 192/8.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 431/15.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، س وي.
(4) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن: (سوأ).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: 352/2، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (صمت).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (صمت).

وأصل (صمت) يَدُلُّ عَلَى إِبْهَامٍ وَإِغْلَاقٍ[1]، والمعنى هنا: ساكتون عن دعائهم، فهم في كلا الحالين لا يؤمنون[2].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الأصنامُ لا تقدر على نفْعِ نفسِها فكيف تنفع غيرَها

هل يَصِحُّ أن يشركوا مع الله أصنامًا لا تَقْدِرُ أن تخلق شيئًا من الأشياء، وهم مَخْلوقون للَّه؟

ولا تقدر هذه المعبودات نَصْرَ عابديها، ولا تقدر نَصْرَ أنفسِها، فكيف يعبدونها؟ وإن تدعوا - أيُّها المشركون - هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله إلى الهدى؛ لا تسمعْ دعاءكم، ولا تتَّبعْكم، يستوي دعاؤكم لها وسكوتكم عنها؛ لأنَّها لا تسمعُ، ولا تبصر، ولا تَهدِي، ولا تُهدى؛ لأنَّها مجرَّدُ جمادات، لا تعقل، ولا تسمع، ولا تنطق[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الموقعُ البيانيُّ لهذه الآيات من الآيات السَّابقة:

توبيخُ المشركين وإقامةُ الحُجَّة عليهم بتفصيل أحوالهم مع مَعْبُوديهم

هذه الآياتُ الثَّلاثُ كَلامٌ مُعترِضٌ بَيْنَ الكلامين المَسوقَيْنِ لتَوبيخ المشركين وإقامة الحُجَّة عليهم، مُخاطَب بها النَّبيُّ ﷺ والمسلمون، للتَّعجيب من سخافة عقول المشركين[4]، وفيه تَعْرِيضٌ بالرَّدِّ عليهم؛ لأنَّه يَبْلُغُ مَسامِعَهم[5].

فقوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ مَسوقٌ لتوبيخِ المُشركينَ، واستقباحِ إشراكِهم على الإطلاقِ، وإبطالِه بالكُلِّيَّةِ[6]، ببيان شأنِ ما أشركوهُ بهِ سُبحانه وتفصيلِ أحوالِه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صمت).
(2) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 282/2.
(3) نُخْبة من أساتذة التَّفسير، التفسير الميسر: 175/1، ومجموعة من المؤلفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 238.
(4) المراغي، تفسيره: 141/9.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 215/9.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 215/9.

القاضيةِ ببطلان ما اعتقدوه في حقِّه[1]، دالًّا على أنَّ المُرادَ مما سبق الشِّرْكُ الحَقيقيُّ، وأنَّ ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ المشركون وأولادهما في العبادة[2]، ولم تُعطف على سابقتها أيضًا لاختلاف الخبر والإنشاء.

بلاغةُ الاستفهامِ ودلالتُه في ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾:

تقريعُ المُشركين والتَّعجيب من سخافة عقولهم

الهمزةُ في قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ للاستفهام الإنكاري[3]، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ والإنكارِ والتَّقريع[4]، حيث صُدِّرت هذه الآية باستفهام يتضمَّن استثارةَ العجبِ من فعل المقْصودِ بِهِ المشركون الأوّلون الَّذين ضرب الله ﷻ مثالًا من أمثلة شِرْكِهم في الآية السَّابقة، فقد كان هؤلاء المشركون يجعلون لله ﷻ شُركاءَ لا تخلق شيئًا، ولا تنفع، ولا تَضُرُّ.

فأنكر على المشركين تسويتَهم بين الله ﷻ وبَيْنَ هذه المخلوقات، أو المصنوعات التي يتَّخذونها أربابًا لهم، وكيف تُسَوِّغ لهم عقولهم أن يشركوا مع الله مخلوقًا[5].

وتَبَيَّنَ من هذا الاستفهام الإنكاري المُعَجِّبِ من حالهم في ضلالهم في أسلوب الغَيبة أنَّ من أشركوه ليس فيه نوعُ قابليَّة لما أَهَّلُوه، فإنَّ المعبودَ يجب أن يكون قادرًا، ومن كان عاجزًا نوعَ عجز كان مَرْبُوبًا[6].

فائدةُ التَّعبير بالمُضارع في ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾:

الدَّلالةُ على تجدُّدِ هذا الإشراكِ منهم

صيغةُ المُضارعِ في ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ دالَّةٌ على تجدُّدِ هذا الإشراكِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 192/8.
(3) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 509/3.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 215/9، والقنوجي، فتح البيان: 633/2.
(5) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 539/5.
(6) البقاعي، نظم الدُّرر: 193/8.

منهم[1]، فهم دائبون على هذا الشِّرك في سائر أحوالهم وأوقاتهم، وفي المضارعيَّة أيضًا استحضارٌ لهذه الصورةِ القبيحةِ.

عودُ الضَّميرِ في ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾:

شمولُ الخطابِ لكلِّ المُشركين في كلِّ زمانٍ ومكان

الضَّميرُ في ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ للزوجين المذكورين آنفًا ولمن اقتدى بهما إلى يوم الدِّين[2]، ولهذا حَسُنَ إيرادُ الجمع، لكن فيه تغليبُ الموجود على المعدوم، وأيضًا فيه ذكرُ بعض مَرْجِعِ الضَّمير صريحًا، وذكرُ بعضهِ حُكْمًا[3].

معنى (ما) في ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾:

بيانُ عَجْزِ الشُّركاء ذاتًا وصفةً على الخَلق والإيجادِ

جاء التَّعبيرُ باسم الموصول (ما) الذي يُستعمل غالبًا فيما لا يُعلَم، ولا يُعقَل، للدَّلالة على أنَّه ليس من صفات الشُّركاء الذين اتَّخذوهم شركاء لله أن تَخْلُقَ شيئًا، بمعنى: أن تُبْدِع شيئًا، أو تُوجِد شيئًا بخصائصها الذَّاتيَّة، أي: ليس لشركائهم صفاتٌ تستطيع أن تخلقَ حتَّى يصحَّ أن تكون شركاء لله في ربوبيَّتهِ، وحتَّى يصحَّ أن تُتَّخذ آلهةً مع الله، تُعبد وتُدعى، ويُتقرَّب لها بالقرابين، فأخرج ذكرهم بـ (ما) لا بـ(مَنْ) مخرجَ الخبر عن غير بني آدمَ؛ لأنَّ الذي كانوا يعبدونه إنَّما كان حجرًا أو خَشَبًا أو نُحَاسًا، أو بعض الأشياء التي يخبر عنها بـ (ما) لا بـ(مَنْ)[4]، فضلًا عن معاني العموم التي تتأتَّى لـ(ما) أكثر ممَّا تتأتَّى لـ(مَنْ).

فائدةُ إرجاعِ الضَّمير إلى الشركاء بالإفراد:

رعايةُ اللَّفظ مع إفادة العموم

إرجاعُ الضَّمير إليها مفردًا لِرعاية لَفْظِهَا، ولَفظُها مفردٌ، وهو مِن صِيَغِ العُمومِ، كما أنَّ إرجاع ضمير الجمع إليها من قوله

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 215/9.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 45/3.
(3) القونوي، حاشية القونوي على تفسير الإمام البيضاوي: 571/8.
(4) ابن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن: 102/9.

ﷺ: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لرعاية معناها[1]، فأُفرِدَ الضَّميرُ في ﴿يَخْلُقُ﴾ مراعاةً لِلَّفظِ، ثمَّ جُمِعَ في يُخْلَقُونَ مُراعاةً للمَعنى[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بجملة صِلَةِ الموصول ﴿لَا يَخْلُقُ﴾:

بـيـانُ بُـطـلان إلهيَّةِ المخلوقاتِ

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ احتُجَّ به على أنَّ العَبدَ غَيرُ مُوجِدٍ ولا خالقٍ لأفعاله، خلافًا للمعتزلةِ القائلينَ بخلقِ الإنسانِ أفعالَ نفسِه؛ وذلك لأنَّ اللهَ تعالى أبطلَ إلهيَّةَ الأجسامِ؛ بسببِ أنَّها لا تخلقُ شَيئًا، وهذا يقتضي أنَّ كلَّ مَن كان خالقًا؛ كان إلهًا، فلو كان العبدُ خالقًا لأفعالِ نَفسِه؛ كان إلهًا، ولَمَّا كان ذلك باطلًا؛ عَلِمْنا أنَّ العبدَ غَيرُ خالقٍ لأفعالِ نَفسِه[3].

فائدةُ التَّعبيرِ بالمُضارعيَّة في ﴿يَخْلُقُ﴾:

تـجـدُّدُ نـفـي الخالقيَّة عنهم

نفيُ المضارعِ في قَولِه: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾ للدَّلالةِ على تجدُّدِ نفيِ الخالقيَّةِ عنهم[4].

وأَصْلُ معنى التَّجدُّد الذي يَدُلُّ عليه المسند الفعلي، هو حدوث معنى المُسْنَدِ للمسند إليه، وأنَّه ليس مجرَّدَ ثبوت وتَقَرُّرٍ، فَيُعلم منه: أنَّهم لا يخلقون في الاستقبال، وأنَّهم ما خلقوا شيئًا في الماضي؛ لأنَّه لو كان الخَلقُ صفةً ثابتة لهم؛ لكان مُتَقَرِّرًا في الماضي والحال والاستقبال[5].

نكتةُ تنكير ﴿شَيْئًا﴾:

بـيـانُ كـمـال عجزِ المعبودات الباطلة وشِـدَّةِ ضَعفها

﴿شَيْئًا﴾ تنكيرها للتَّعميم، أي: ما لا يخلق شَيْئًا مِن الأشياء أصلًا مَهْمَا يكن قليلًا حقيرًا[6]، وفيه إبطالٌ لشركهم وبيان لشدَّة

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 133/5.
(2) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 282/2، ومحمد رضا، تفسير المنار: 438/9.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 431/15، وسليمان آل الشيخ، التوضيح عن توحيد الخلاق، ص: 68.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 215/9.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 216/9.
(6) طنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 455/5.

عجزِ معبوداتِهم الباطلة وضعفِها من أن يخلقوا شيئًا كبيرًا كان أو صغيرًا عظيمًا كان أوحقيرًا.

فمن حقِّ المعبودِ أن يكون خالقًا لعابدِه[1]، فما بالك إن عجز على خَلْقِ ما هو أهونُ من ذلك.

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾:

بـيـانُ المـعـنـى الـلَّازم من كون المـعـبـودات غيرَ خالقةٍ

قوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ عطفٌ على ﴿لَا يَخْلُقُ﴾، فلمَّا كان يلزم أن يكونَ ما لا يخلق شيئًا مخلوقًا؛ لأنَّه لا يكون عاجزًا بغير قادرٍ أوجده؛ صرَّح به، وعطف عليه[2]، ومن الممكن جدًّا أن تكونَ الواوُ للحال على معنى: والحال أنَّهم يُخلقون.

نكتةُ بناء ﴿يُخْلَقُونَ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعله:

الاستغناءُ عن ذكـر الـفـاعـل للعلم به

قوله تعالى: ﴿يُخْلَقُونَ﴾ لَمَّا كان المصنوعُ لا يكونُ صانعًا؛ اكتفى بالبناءِ للمَفعولِ[3]، فعدمُ التَّعرُّضِ لخالقها للإيذان بتَعَيُّنه والاستغناءِ عن ذكره للعلم به[4]، وللانشغال بالفعل عن الفاعل.

فائدةُ التَّعبير بالمضارع في ﴿يُخْلَقُونَ﴾:

بـيـانُ تـجـدُّدِ أعـراضـهـم وذواتـهـم خَـلْـقًا من بعد خَلق

قوله تعالى: ﴿يُخْلَقُونَ﴾ أي: متجدِّدًا خَلْق أعراضِهم وذواتهم وأمثالهم[5]، فالتَّعبيرُ بالفعلِ المُضارعِ ﴿يُخْلَقُونَ﴾؛ لِتصويرِ حُدوثِ خَلْقِهم، وكونِ مِثله ممَّا يتجَدَّدُ فيهم وفي أمثالِهم مِن المُشركين، وهذا أسوأُ فضائِحِهم في الشِّركِ[6]، فمعبوداتُ المشركين من دون اللّه إن بقيت في الوجود، فإنَّها تُخْلَقُ خَلْقًا من بعد خَلْقٍ، فهذه الصيغة تدلُّ على التجدُّد المتكرِّر، ومعنى تجدُّد مخلوقيَّتهم: هو أنَّ

(1) إسماعيل حقي، روح البيان: 295/3.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 192/8.
(3) البقاعي نظم الدرر: 192/8.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 192/8.
(6) محمد رضا، تفسير المنار: 438/9.

الضَّميرَ صادق بأمَّة وجماعة، فالمخلوقيَّة لا تُفارقهم؛ لأنَّها تتجدَّد آنًا فآنًا بازدياد المواليد، وتغيُّر أحوال المواجيد، كما قال تعالى: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزُّمر: 6][1].

دلالةُ الإشارةِ إلى الأصنامِ بضميرِ العُقَلاء في: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾:

إجـراءُ اللَّفظ على حسب اعتقادِهم وتَصَوُّرهم

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أشار إلى الأصنام في ﴿يُخْلَقُونَ﴾ بضميرِ العُقَلاءِ مِن قَبيلِ الحكايةِ؛ لاعتقادِ المُشركينَ فيها ما يعتَقِدونَه في العُقَلاءِ، لإجرائهم لها مجرى العقلاءِ وتسميتِهم لها آلهةً[2]، أو لأنَّهم مُختَلِطونَ بمَن عُبِدَ مِن العقلاءِ؛ كالمَسيحِ وعُزيرٍ[3]، ويمكن أن يكون لإجراء ضمائر العقلاء في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ – وقوله – ﴿يُخْلَقُونَ﴾ وما بعده على الأصنام، وهي جماداتٌ؛ لأنَّهم نُزِّلوا منزلةَ العقلاءِ، بناء على اعتقاد المحجُوجين وتصوُّرهم فيهم[4]؛ لأنَّ الخبرَ عنها بتعظيم المشركين إيَّاها نظيرُ الخبر عن تعظيم النَّاس بعضَهم[5]، كما أنَّهم كانوا يصوِّرونها على صورة من يعقل[6].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّهكميَّة في وصفِ المعبوداتِ الباطلة:

إظـهـارُ غـايـة جهلِ من يَعبدُ غير الله تعالى وإعـلان سفاهة عقولهم

وصفُ هذه المعبودات الباطلة بالمخلوقيَّة بعد وصفِها بنفي الخالقيةِ لإبانة كمالِ منافاةِ حالِها لما اعتقدوه في حقِّها وإظهارِ غايةِ جهلِهم فإنَّ إشراكَ ما لا يقدِرُ على خلق شيء ما بخالقه وخالق جميع الأشياء ممَّا لا يمكن أن يسوِّغه من له عقلٌ[7]، ومثل هذا الوصف يُطلق من قبيل الاسْتِعَارَة التَّهكميَّة[8].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 216/9.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 133/5.
(3) ابن عادل، تفسير ابن عادل: 423/9، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 216/9.
(4) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 282/2، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 216/9.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 102/9.
(6) إسماعيل حقي، روح البيان: 295/3.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3، وابن التمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 573/8.
(8) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 573/8.

عَوْدُ ضميرِ الغيبةِ في ﴿وَهُمْ﴾:

إثباتُ مخلوقيَّةِ الأصنامِ وعابديها

ضميرُ الغيبة في ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يجوز: أن يكون عائدًا إلى ما عاد إليه ضمير ﴿يُشْرِكُونَ﴾ في الآية السَّابقة، أي: والمشركون يُخلقون، ومعنى الحال: زيادةُ تفظيع التَّعجيب من حالهم لإشراكهم بالله أصنافًا، لا تخلق شيئًا في حال أنَّ المُشركين يُخلَقون يومًا فيومًا، أي: يتجدَّد خلقُهم، والمشركون يُشاهدون الأصنامَ جاثمةً في بيوتها ومواضعها لا تصنع شيئًا، فتكون جملة: وهم يخلقون حالًا من ضمير يشركون.

والمفسِّرون أعادوا ضمير ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ على ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾، أي: الأصنام، ولم يبيِّنوا معنى كون الأصنام مخلوقةً، وهي صورٌ نحتها النَّاس، وليست صورها مخلوقةً لله، فيتعيَّن أنَّ المُراد أنَّ مادَّتها مخلوقة، وهي الحجارة[1].

بلاغةُ العطف في قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾:

بيانُ عجز الأوثان حتى عن نُصرة عابديها بعد إثبات عجزها عن الخَلْقِ

جملة: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ عَطْفٌ على جملة: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ فتكون صلة ثانية[2].

جاءت لإثبات عدم قُدرة هذه المعبودات الباطلةِ على نُصرة عابديها بعد إثبات عجزِها عن خَلقِهم.

دلالةُ تخصيصِ النَّصرِ من جُملة المطلوباتِ المرغوبات:

بيانُ أنَّ النَّصرَ أَشَدُّ مَرْغوبٍ لهم، والتَّعريضُ بهزيمتهم من قِبَلِ المسلمين

الظَّاهرُ أنَّ تخصيصَ النَّصرِ من بين الأعمالِ التي يَتَخيَّلُون أن تقومَ بها الأصنامُ مقصودٌ منه تنبيهُ المشركين على انتفاء مقدرةِ الأصنام على نفعِهم؛ إذ كان النَّصرُ أشدَّ مرغوبٍ لهم؛ لأنَّ العربَ كانوا أهلَ غاراتٍ وقتال وتِراتٍ، فالانتصار من أهم الأمور لديهم، وأنَّ الله أعلمَ المسلمين بذلك؛ تعريضًا بالبِشارة بأنَّ المشركين سيغلبون[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 216/9.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 217/9.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 217/9.

عودُ الضَّمائرِ في ﴿يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾:

بيانُ كون الأصنامِ لا تستطيع نصرَ عابديها بحال من الأحوال

قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ ولا يستطيعون لعابديهم معونةً؛ إذا حَزَبَهم أمرٌ مُهِمٌّ وخَطْبٌ مُلِمٌّ، كما لا يستطيعون لأنفسهم نصرًا على من يعتدي عليهم بإهانةٍ لهم، أو أخذِ شيءٍ ممَّا عندهم من طيبٍ أو حُلِيٍّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: 73][1].

فالضَّميرُ المجرور باللَّام في ﴿لَهُمْ﴾ عائدٌ إلى المشركين؛ لأنَّ المجرورَ باللَّام بعد فعل الاستطاعة ونحوه هو الذي لأجلِهِ يقع الفعلُ، مثل: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ [العنكبوت: 17][2].

غرضُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾:

تجدُّدُ عَجْزِهِمْ عَنْ نُصْرَةِ معبوديهم حالًا ومآلًا

المضارعُ في ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يَدُلُّ على تجدُّد نَفْيِ استطاعتِهم نصرةَ مَعبوديهم ودوامَ هذا العجزِ[3].

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿لَهُمْ﴾:

تقديمُ الأهمِّ في البيان لفتًا للانتباه

قولُه: ﴿لَهُمْ نَصْرًا﴾ قدَّم المعمولَ، وهو الضَّمير في: ﴿لَهُمْ﴾ على عامله: ﴿نَصْرًا﴾، ودخلت عليه لامُ التَّقوية أو التَّعليل، والغرضُ البلاغيُّ من هذا التَّقديم تنبيهُ المشركين على أنَّ عبادتَهم لشركائهم لا تجلبُ لهم معونةَ النَّصر، إذ تقديمُ الأهمِّ في البيان من وسائل التَّنبيهِ عليه، ولفت النَّظر إليه.

نكتةُ تنكير ﴿نَصْرًا﴾:

عجزُها عن النُّصرة مهما كان مقدارُها وشأنُها

تنكيرُ ﴿نَصْرًا﴾ للتَّعميم أو للتَّقليل، أيْ: نصرًا ما، مهما كان مقدارُهُ بجلب منفعةٍ أو دفعِ مضرَّةٍ[4].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 141/9.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 216/9.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 216/9.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3.

دلالةُ الواو في ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾:

لمَّا كان من لا ينصرُ غيرَهُ قد يَنْصُرُ نفسَه؛ نفى ذلك بقوله: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ أي: في وقت من الأوقات عندما يصيبُهم بسوء، بل عَبَدَتُهم يدافعون عنهم[1]، فلمَّا كان لا يلزمُ من عدم القُدرةِ على نصرة الآخرين ألَّا يقدرَ على النُّصرَة لنفسه[2]؛ جيءَ بهذا العطفِ لنفي هذا أيضًا اهتمامًا بنفي هذا النَّصرِ عنهم من جميعِ الوجوه؛ لأنَّه أدلُّ على عجز تلك الآلهة؛ لأنَّ من يُقَصِّر في نصر غيرِهِ لا يقصِّرُ في نصرِ نفسِه لو قَدَرَ، فالمعنى: أنَّ الأصنامَ لا ينصرون من يعبدونهم إذا احتاجوا لنَصْرِهِمْ، ولا ينصرون أنفسَهم إن رام أحدٌ الاعتداءَ عليها[3]، ويمكن أن تكونَ واوًا للحال على معنى: والحال أنَّ أنفسهم لا يستطيعون نصْرَها.

نَفيُ نَصْرِ هذه المعبودات الباطلة لأنفسِها بعد نفي نُصرتها لغيرها إظهارًا لكمال عجزها

دلالةُ التَّعبيرِ عن الأصنام بصيغةِ العُقلاء:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ عبَّرَ بصيغةِ العاقِلِ عن الأصنام؛ إشارةً إلى أنَّهم لو كانوا يَعقِلونَ، وكانوا بهذه الصِّفاتِ الخَسيسةِ، ما أهَّلُوهم لِأنْ يكونوا أحبابَهم، فضلًا عن أن يجعَلوهم أربابَهم[4]، فتعبيرُه عنهم بصيغِ العاقل من قبيل الاستعارة التهكُّميَّة.

الإشارةُ إلى صفات الأصنام الخسيسةِ المانعة من عبادتها ولو كانت عاقلةً

معنى (لا) ودلالتُها:

في هذا النَّفي بيانٌ لشدَّة عجزِهم، فمن عَجِزَ عن نَصْرِ نفسِه؛ كان عن نصْرِ غيرِهِ أعجزَ.

نكتةُ تقديم المفعولِ به على الفعل:

وتقديمُ المَفعولِ في ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ للاهتمامِ بنَفيِ هذا

الاهتمامُ بنفي نصْرِ النَّفس المُفضي لنفي نصْرِ الآخرين بطريقِ الأولى

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 193/8.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 273/2.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 389/8.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 192/8.

النَّصرِ عنهم؛ لأنَّه أدَلُّ على عجزِ تلك الآلهةِ؛ لأنَّ مَن يُقصِّرُ في نَصرِ غَيرِه لا يُقصِّرُ في نَصرِ نَفْسِه لو قَدَر[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَنصُرُونَ﴾:

بيانُ عجزِهم عن إيصالِ المنافعِ على جهةِ الدَّوامِ والاستمرارِ

هذا بيانٌ لعجزهم عن إيصال منفعةٍ ما من المنافع الوجوديَّةِ والعدميَّةِ إلى عَبَدَتِهم وأنفسِهم على جهة الاستمرار بعد بيانِ عجزِهم عن إيصال منفعةِ الوجود إليهم وإلى أنفسِهم أيضًا[2].

دلالةُ وصْفِهم بالمخلوقيَّة في الآية السَّابقة ونفي المنصوريَّةِ هنا:

بيانُ كونِهم مخلوقين لأهليَّتهم لذلك، وليسوا ناصرينَ لعدم أهليَّتهم

وُصفوا هناك بالمخلوقيَّة عند قوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لكونِهم أهلًا لها، وههنا لم يوصفوا بالمنصوريَّةِ عند قوله: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا لها[3].

فائدةُ المجازِ المُرسَلِ في التَّعبيرِ عن العجز والاحتياجِ بنفي الاستطاعةِ:

بيانُ كمالِ العجزِ وشِدَّةِ الاحتياجِ في التَّعبيرِ بنفي الاستطاعةِ

قولُه: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ مجازٌ مرسلٌ علاقته الملزوميَّة؛ لأنَّ المذكورَ هو الملزوم (عدم الاستطاعة)، وهو مستعملٌ في لازم معناه في تأكيد العجزِ والاحتياج المنافيَين لاستحقاق الألوهيَّة[4].

بلاغةُ العطفِ ودلالاتُه:

الزِّيادةُ في التَّعجيبِ مِن حالِ المشركين وتوجيهُ الخطابِ إليهم لدمغِ حُجَّتِهم

قولُه تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ يجوزُ أن يكون عطفًا على جملة ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ زيادةً في التَّعجيب من حال المشركين بذكْرِ تَصميمهم على الشِّركِ على ما فيه من سخافةِ العقول ووهنِ الدَّليل، بعد ذكْرِ ما هو كافٍ لتزييفه[5]، ويجوز أن تكون جملة ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ معطوفةً على جملة الصِّلةِ في قوله: ﴿لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، فيكونُ ضميرُ الخطاب في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 217/9.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 134/5.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 217/9.

﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾ خطابًا للمشركين الذين كان الحديثُ عنهم بضمائر الغيبةِ من قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾ [الأعراف: 190] إلى هنا، فمقتضى الظَّاهر أن يُقال: (وإن يدعوهم إلى الهدى لا يتَّبعوهم)، فيكون العدولُ عن طريق الغيبةِ إلى طريق الخطابِ التفاتًا من الغيبةِ إلى الخطاب توجُّهًا إليهم بالخطاب؛ لأنَّ الخطابَ أوقعُ في الدَّمغ بالحُجَّةِ[1].

بلاغةُ الالتفاتِ في قوله: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾:

الإنـبـاءُ عَـن مَـزيـدِ الاعـتـنـاءِ بـأمْـرِ التَّـوبـيـخِ والتَّبكيتِ

الظَّاهرُ أنَّ الخطابَ للكفَّار انتقل من الغَيبة إلى الخطاب على سبيل الالتفاتِ والتَّوبيخِ على عبادة غيرِ الله، ويدلُّ على أنَّ الخطابَ للكفار قولُه بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾، وضميرُ المفعول عائدٌ على ما عادت عليه هذه الضَّمائر قبلُ، وهو الأصنام، والمعنى: وإن تدعوا هذه الأصنامَ إلى ما هو هُدًى ورشادٌ أو إلى أن يهدوكم، كما تطلبون من الله الهدى والخير، لا يتَّبعوكم على مرادِكم ولا يجيبونكم، أي: ليست فيهم هذه القابليَّةُ؛ لأنَّها جمادٌ لا تعقل[2]، وفيه بيانٌ لعجزِهم عمَّا هو أدنى مِنَ النَّصرِ المنفيِّ عنهم وأيسرُ، وهو مجرَّدُ الدِّلالةِ على المطلوب والإرشادِ إلى طريق حصولِه من غير أن يحصِّلَه الطَّالبُ، فالخطابُ للمشركين بطريق الالتفاتِ المنبىءِ عن مزيد الاعتناءِ بأمرِ التَّوبيخِ والتَّبكيتِ، أي: إنْ تدعوهم - أيُّها المشركون - إلى أن يَهدوكم إلى ما تُحَصِّلونَ به المطالبَ، أو تنجون به عن المكاره[3].

وكان للتَّنبيه بالخطاب ما ليس له بالغَيبة مِنَ التَّعجيب تعجيبًا آخرَ منهم أشدَّ من الأوَّل، وذلك أنَّ معبوداتهم التي أشركوا بها،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 218/9.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 248/5.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3.

كما أنَّها لا تفعل شيئًا من تلقاء أنفسِها، لا تفعله عند دعاءِ الدَّاعي، ولا تهتدي إليه[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملة الشَّرطيَّة مع أنَّ دعوتهم محقَّقةٌ:

الإشارةُ إلى سفاهةِ عقول الدَّاعين وتيئيسهم من معبوداتِهم الباطلةِ

قولهُ تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ﴾، أي: وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم إلى ما تحصِّلون بهِ رغباتِكم، أو تنجون به من المكاره التي تَحيق بكم، لا يتَّبعوكم، فلا يستجيبوا لكم، ولاينفعوكم[2]، فهم في الحالين عديمو النَّفعِ[3]؛ ولأنَّ دعوتهم لهم محقَّقةٌ كان الجوابُ بعدم استجابة معبوديهم مُتَحَقِّقةً إشارةً إلى سفاهة عقول الدَّاعين، وتيئيسهم من إجابة المدعوِّين.

بيانُ التَّرقِّي في الحوار معهم لدحضِ حُجَجِهم

التَّرقِّي في الحوار على خمسِ مراحلَ: أوَّلًا: لا يَخلقون، ثانيًا: هم يُخلقون، ثالثًا: لا ينصرونكم، ورابعًا: ولا ينصرون أنفسَهم، ثم تأتي المرحلةُ الخامسة في قوله الحقِّ:[4]﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾:

﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾، أي: وإن تدعوا - أيُّها المُشركون - أصنامكم دعاءً مُستمرًّا مُتجدِّدًا[5].

دلالةُ عودِ الضَّمائر في ﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾:

بيانُ عَودِها على الأصنام مع صِحَّة عودها على عَبَدَتها مِن المشركين تنويعًا للمعاني

الضَّميرُ (هم) عائدٌ على الأصنامِ، وهو الأشهر في عباراتِ المفسِّرين، وقيل: عائدٌ على الكفَّار، فإن قلنا: هم الأصنامُ، فالمعنى: إن تدعوهم إلى ما هو هُدًى ليهدوكم إليه، ويدلُّوكم عليه، كما تطلبون مِنَ اللهِ الخيرَ والهُدى، لا يتَّبعونكم إلى ما تريدونَ منهم، وإن قلنا: هم المشركونَ، فالمعنى: وإن تدعو - أيُّها الرَّسول والمؤمنون

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 193/8، والقنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 634/2.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 141/9.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 341/7، والزمخشري، الكشاف: 188/2، وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: 204/9.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4521/8.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 193/8.

- المشركين إلى الهدى لا يتَّبعوكم[1]، فضميرُ الخطابِ المرفوع في ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ﴾ على هذا التقديرِ موجَّهٌ إلى المسلمين مع الرَّسول ﷺ وضميرُ جمعِ الغائبِ المنصوب عائدٌ إلى المشركين، كما عادَ ضميرُ ﴿أَيُشۡرِكُونَ﴾ [الأعراف: 191][2].

معنى (ال) في ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾:

يحتمل أن تكونَ (الـ) عهديَّةً يُرادُ بها دعوةُ نبيِّهم، ويحتمل أن تكون جنسيَّةً استغراقيَّةً تدلُّ على عدم استجابتِهم للهدى كلِّهِ أيًّا كان جنسُه ومصدرهُ، والمقصودُ من ذِكره أنَّهم لا يستجيبون إذا دعوتموهم إلى ما فيهِ خيرُهم، فيُعلم أنَّهم لو دَعَوْهُم إلى غير ذلك؛ لكان عدمُ اتِّباعهم دعوتهم أولى[3].

عـــــــدمُ استـجـابـتـهـم للخيرِ من جميع وجوهِهِ

معنى (لا) في ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡ﴾:

(لا): نافية، وغايةٌ في نفي الخير عن هذه المعبودات من حيث إنَّ اتِّباع الهوى عند الدُّعاء مقدورٌ لعابديها غيرُ مقدور لها، فهي أوضعُ رُتْبَةً من عابديها[4].

بيانُ كـونِ هذه المـعـبـوداتِ الباطلة أوضعَ وأخـــسَّ مـن عابديها

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿يَتَّبِعُوكُمۡ﴾:

التَّعبيرُ بـ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ عن طاعتهم لكم، حيث شبَّه الطَّاعةَ بالاتِّباع بجامع الملازمة وعدم المفارقة، والمضارعُ فيها للتَّجدُّد الاستمراريِّ.

نفيُ الاتِّباعِ على سبيل التَّجدُّد والاستمرار

بلاغةُ توجيهِ القراءات المتواترةِ في ﴿يَتَّبِعُوكُمۡ﴾:

اختلفَ القرَّاء في: ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡ﴾ هُنَا، وفي الشُّعراء ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: 224]، فقرأ نافعٌ بإسكان التَّاءِ وفتح الباءِ فيهما، وقرأ الباقُونَ بفتح التَّاءِ مُشَدَّدَةً وكَسْرِ الباءِ فِي المَوْضِعَيْنِ[5].

المبالغةُ في نفي الاقـتـداءِ بهم، فلا يتصوَّر منها قصدُ التَّبعِ فضلًا عن إيجادِهِ ونفي اقتفاءِ آثارِهم

(1) الرسعني، رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز: 340/2.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 217/9.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 218/9.
(4) الجرجانيّ، درج الدُّرر: 717/1، ودرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 511/3.
(5) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 274/2.

فـ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْۚ﴾ بالتَّشديد من اتَّبع، ومعناهُ: لا يقتدوا بكم في ذلك الهُدى الذي دعوتموهم إليه، ولو بالغْتُم في الاستتباع، جاء بصيغة الافتعال إشارةً إلى أنَّهُ لا يُتصوَّر منهُ قصدُ التَّبع فضلًا عن إيجاده[1].

و﴿لَا يَتْبَعُوكُمْۖ﴾ بالتَّخفيف من (تَبِعَ)، ومعناه: لا يَتْبَعُوا آثاركم[2]، فَتَبِعَهُ: اقتفى أثره، واتَّبَعه: اقتدى به[3].

الموقعُ البيانيُّ لجملة ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾:

استئنافٌ مقرِّرٌ ومؤكِّدٌ لمضمونِ ما قبلَه، ومُبيِّنٌ لكيفيَّة عدمِ الاتِّباع، أي: مستوٍ عليكم في عدم الإفادةِ دُعَاؤُكم لهم وسكوتُكم البحتُ، فإنَّه لا يتغيَّر حالُكم في الحالين، كما لا يتغيَّر حالُهم بحكم الجَماديَّة[4]، فكيف يُعْبَدُ من هذه حاله[5]؟ فجملة: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ مُؤَكِّدَةٌ لجملةِ ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، ولذلك فُصِلت[6].

معنى ﴿سَوَآءٌ﴾ وسِرُّ الاستئنافِ به:

بيانُ عدمِ تغيُّرِ الحُكمِ بِتَغيُّرِ الأحوال

(سواء) اسمٌ للشَّيء المساوي غيرَه، أي: ليس أولى منه في المعنى المسوقِ له الكلامُ، والهمزة التي بعد سواءٍ، يقال لها: همزةُ التَّسويةِ، وأصلُها همزة الاستفهام، استُعمِلت في التَّسوية، كما في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [سورة البقرة: 6][7]، والمعنى: أي: مستوٍ عليكم في عدم الإفادةِ دعاؤكم لهم وسكوتُكم، فإنَّه لا يتغيَّر حالكم في الحالين، كما لا يتغيَّر حالهُم بحكم الجماديَّة[8].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 193/8.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 248/5، والهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 287/10.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 383/3.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 248/5.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 218/9.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 218/9.
(8) الآلوسيّ، روح المعاني: 134/5، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 456/5.

نكتةُ تعديةِ ﴿سَوَآءٌ﴾ بـ(على):

(على) في ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ للاستعلاءِ المجازي، وهي بمعنى العنديَّةِ، أي: سواءٌ عندَهم، وإنَّما جُعِل الأمران سواءً على المخاطَبين، ولم يُجعلا سواءً على المدعوِّين، فلم يقل: سواءٌ عليهم، وإن كان ذلك أيضًا سواءً عليهم؛ لأنَّ المقصودَ مِنَ الكلام هو تأييسُ المُخاطَبين من استجابة المدعوِّين إلى ما يدعونهم إليه لا الإخبارُ.

تيئيسُ المخاطَبين مِن استجابةِ المدعوِّين

توجيهُ المتشابه اللَّفظي في ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾:

قولُهُ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ تَسْوِيَة لِلحالَين، وإن كان المعنيان متلازمَين في المُخاطَبين والمَدْعُوِّين، كما أنَّهما في قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ [البقرة: 6] متلازمان، فإنَّ الإنذارَ وعدمَه سواءٌ على المشركين، وعلى المؤمنين، ولكنَّ الغرضَ في سورة البقرة بيانُ انعدام انتفاعهم بالهدى، وهذا هو القانونُ للتَّفرقة بَيْنَ ما يَصِحُّ أن يُسنَدَ فيه فعلُ التَّسويةِ إلى جانبَين، وبين ما يَتَعَيَّنُ أن يُسندَ فيه إلى جانبٍ واحدٍ، إذا كانت التَّسويةُ لا تهمُّ إلا جانبًا واحدًا، كما في قوله تعالى: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الطُّور: 16]، فإنَّه يتعيَّن أن تُجعلَ التَّسويةُ بالنِّسبة للمخاطَبين، ولا يَحسُنُ أن يُقالَ: سواءٌ علينا، وكقوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ٢١﴾ [إبراهيم: 21] فإنَّه يتعيَّن أن تكونَ التَّسويةُ بالنِّسبةِ إلى المُتكلِّمين[1].

تَعيُّن جَعْلِ التَّسوية لمن يتأتَّى له الخِطابُ، ويُنتظَر منه الجوابُ

غرضُ الاستفهامِ في ﴿أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ﴾:

لَمَّا كان السَّواءُ لا يكونُ إلَّا بين أمرين؛ تَشَوَّفَ السَّامعُ إليهما، فقال: ﴿أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ﴾، أي: وجَدَ منكم ذلك الدُّعاءَ[2].

الإشارةُ إلى تشوُّفِ السَّامع إلى ما بعدَ التَّسوية

بلاغةُ العدولِ من الفعليَّة إلى الاسميَّة:

في: ﴿أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ في معنى الفعليَّةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 218/9.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 194/8.

المبالغةُ في عدم إفادةِ الدُّعاء من حيثُ إنَّه مسوًّى بـالـثَّـبـاتِ على الصُّمات

معطوفةٌ على الفعليَّةِ ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾؛ لأنَّها في قوَّة أمْ صَمَتُّم، فعُدِل عنها للمبالغةِ في عدم إفادةِ الدُّعاء ببيان مساواتِه للسُّكوت الدَّائمِ المستمرِّ[1]، فيُفيدُ بأنَّهم صامتون دائمًا على الدُّعاءِ إليهم[2].

وكان الظَّاهرُ الإتيانَ بالفعل فيما بعد ﴿أَمْ﴾؛ لأنَّ ما في حيز همزة التَّسوية مؤوَّلٌ بالمصدر، لكنَّه عدلَ عن ذلك للإيذانِ بأنَّ إحداثَ الدَّعوةِ مُقابلٌ باستمرار الصُّمَاتِ، وفيه من المبالغة ما لا يخفى، وقيل: إنَّ الاسميَّة بمعنى الفعليَّةِ، وإنَّما عدل عنها؛ لأنَّها رأس فاصلة، وفيه أنَّه لو قيل: تصمتون؛ تَمَّ المُرادُ[3].

وإنَّما لم يقل: أم صمتم؛ للمبالغة في عدم إفادة الدُّعاء من حيثُ إنَّه مسوًّى بالثَّبات على الصُّمات، أو لأنَّهم ما كانوا يدعونها لحوائجِهم، فكأنَّه قيل: سواءٌ عليكم إحداثُكم دعاءَهم واستمرارُكم[4].

بلاغةُ عطفِ الجُملةِ الاسميَّة على الفعليَّةِ:

الإشارةُ إلى أنَّهم لا يدعونهم في وقتِ الشَّدائد

عَطْفُ الجُملةِ الاسميَّةِ ﴿أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ على الفعليَّةِ ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ لفائدةٍ وحِكمةٍ، وهي أنَّ صيغةَ الفعلِ مُشعِرةٌ بالتَّجَدُّدِ والحُدوثِ حالًا بعد حالٍ، وصيغةُ الاسم مُشعِرةٌ بالدَّوام والثَّباتِ والاستمرارِ، فهؤلاءِ المُشركونَ كانوا إذا وقَعوا في مُهِمٍّ وفي معضلةٍ؛ تضرَّعوا إلى تلك الأصنام، وإذا لم تَحدُثْ تلك الواقعةُ بَقُوا ساكِتينَ صامِتينَ، فقِيل لهم: لا فرقَ بينَ إحداثِكم دعاءَهم، وبينَ أن تستمرُّوا على صَمتِكم وسُكوتِكم[5].

فعُطِفَ بالاسميَّة إشارةً إلى أنَّهم لا يدعونهم في وقت الشَّدائد، بل يدعون اللّٰه، فقال: ﴿أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾، أي: عن ذلك على

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 273/2.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 134/5، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 456/5.
(4) الخفاجي، حاشية الشهاب: 420/4، وشيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 346/4.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 431/15.

الدَّوام على عادتِكم في الإعراضِ عن دعائِهم في أوقاتِ الملِمَّات، فالذين يدعون مُعتقديهم في وقتِ الضَّرورات أقبحُ حالًا في ذلك من المشركين[1].

بلاغةُ تخريجِ الكلامِ على الاحتباكِ بين دلالةِ الفعل والاسم:

دلالـةُ الـفـعـلِ الأوَّلِ على حذْفِ مثلِهِ بعد ذلك، ودلالـةُ الاسـم الثَّاني على حذْفِ مثلِهِ الأوَّلِ

ويجوزُ أن تكونَ الآيةُ من الاحتباك، فيكون نظمُها: أدعوتموهم مرَّةً، أو أنتم داعوهم دائمًا، أم صَمَتُّمْ عن دعائِهم في وقتٍ ما، أم أنتم صامتون دائمًا عن دعائِهم، حالُكم في كلِّ هذه الأجوبة سواءٌ في عدم الإجابةِ، لا اختلافَ فيه بوجهٍ، فدلَّ بالفعل أوَّلًا على حذْفِ مِثْلِه ثانيًا، وبالاسم ثانيًا على حذْفِ مثلِه أولًا[2].

بلاغةُ البديعِ مِن خلالِ المقابلاتِ في الآياتِ:

بـيـانُ الـتَّـرقِّـي في الـحـوارِ معهم دحضٌ لـحُـجَـجِـهِـم وإبـطـالٌ لشِرْكِهم

في هذه المتقابلات: ﴿لَا يَخْلُقُ﴾ و﴿يُخْلَقُونَ﴾ و﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ و﴿تَدْعُوهُمْ﴾ ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْۚ﴾ و﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ ﴿أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ نجدُ التَّرقِّي بذكرها في الحوار على خمسِ مراحلَ: أوَّلًا: لا يَخلقون، ثانيًا: هم يُخلقون، ثالثًا: لا يستطيعون لهم نصرًا، ورابعًا: ولا ينصرون أنفسَهم، ثُمَّ تأتي المرحلةُ الخامسةُ في قوله الحقِّ:[3]﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْۚ﴾ في حالين: حال الدَّعوة وحال الصَّمت، فأحدثت هذه التقابلاتُ ترقِّيًا بديعًا في نقض ألوهيَّة أصنامِهم وإبطالِ عبادتِها، فالقضيَّةُ الأولى أنَّها لا تخلُق، والثَّانية أن تكون مخلوقةً بالضَّرورة؛ لأنَّها لا تخلقُ، وإذا كانت مخلوقةً؛ فهي عاجزةٌ، ومن الجائز على العاجز أنَّه لا يقدرُ أن ينتصرَ لغيرِه؛ لأنَّه ضعيفٌ، ثُمَّ إنَّها أعجزُ من ذلك، فهي لا تنتصرُ لنفسِها، ومع ذلك إن أردت أن تدعوها إلى شيءٍ؛ فلا تُقْبِل،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 194/8، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 219/9.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 194/8.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4521/8.

ولا تَستجيب لك حالَ دعوتِكَ، وحال صَمْتِكِ، فهي مخلوقاتٌ عاجزةٌ صمَّاءُ بكماءُ أعجزُ من عابديها، وأخسُّ صِفَةً من مُعظِّميها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصَّمتُ والسُّكوتُ:

السُّكوتُ ترك الكلام مع القدرة عليه

السُّكوتُ: هو تركُ التَّكلُّم مع القدرة عليه[1]، وبهذا القيدِ الأخير يُفارق الصَّمتَ؛ فإنَّ القُدْرَةَ على التَّكلُّم غيرُ مُعتبرةٍ فيه، كما أنَّ الصَّمتَ يُراعى فيه الطُّولُ النِّسبي، فمن ضمَّ شفتيه آنًا يكون ساكتًا، ولا يكون صامتًا إلَّا إذا طالت مُدَّةُ الضَّمِّ، كما أنَّ السُّكوتَ إمساكٌ عن الكلام حقًّا؛ كان أو باطلًا، أمَّا الصَّمتُ؛ فهو إمساكٌ عن قولِ الباطلِ دون الحقِّ.

ولذا يكون الصَّمتُ أبلغَ من السُّكوت؛ لأنَّه قد يُستعمل فيما لا قوَّة له للنُّطق، وفيما له قوَّةُ النُّطقِ؛ ولهذا قيل لما لا نطق له: الصَّامتُ والمُصمَت، والسُّكوت يقال لما له نُطْقٌ، فيُترَك استعمالُه[2].

(1) الجرجاني، التعريفات، ص: 120، والكفوي، الكليات، ص: 509.

(2) الزبيدي، تاج العروس: (سكت)، والهروي، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: 3038/7.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 15 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-11-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 15 : المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26.
-1القرآن - تفاسير نحوية -2 القرآن، بديع -3 القرآن، بلاغة -4 القرآن - سور وآيات -5 القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-11-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7668393 بتاريخ 2024/01/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»